مقوّمات النصر في القرآن الكريم

الدكتور

كاصد ياسر الزيدي

الاستاذ بقسم اللغة العربية في كلية الاداب

جامعة الموصل

ليس القتال في القرآن غاية في حد ذاته ، بل هو وسيلة لتحقيق مُثُلـه وغاياته كما انه لا يخضع للاعتبارات البشرية الذاتية في اختياره ، وإنما يصدر عن اعتبارات عامة تحقق للعقيدة والأمة أهدافها التي دعا الله سبحانه اليها . ولهذا عبر عنه القرآن في مواضيع كثيرة (١) بلفظة (الجهاد) ، تلك اللفظة التي استمدت دلالتها المقدسة الرائعة ، من أهداف القتال الذي مارسه المسلمون، في ظل الإسلام ودعوة القرآن . واتخذت ذلك المفهوم الذي كان له صداه وتأثيره النفسي والعملي في وجود المسلمين على مر العصور ، وإن كان في دلالته أعم .

فالقتال في القرآن ، إنما شُرع ليحمي المثل والقيم والعقيدة التي جاء بها الإسلام ، وأمر المسلمين أن يستمسكوا بها فكراً وسلوكاً ، وليس هو وسيلة عدوان وقهر بغير حق ، أو بلا مسوّغ عدل ، كما هي الحال في القتال الذي

---

(١) مثل : البقرة : ٢١٨ ، وآل عمران ١٤٢ ، والأنفال ٧٢ ، ٧٤ و٧٥ .

ينشب في كثير من الأحيان لدى الأمم او الأفراد ، الأمر الذي انتهى به إلى النصر عند الالتزام بالمقومات .

وإذا اردنا الحديث عن مقومات القتال المؤدية إلى النصر في القرآن ، فلا بد أن نتناولها من جانبيها ، وهما :

الجانب الذهني التصوري ، وهو المتعلق بالمفاهيم المؤدية إلى تحقيق النصر .
والجانب العملي وهو المتعلق بالواقع والتطبيق ، من أجل إحراز النصر .

أو بعبارة أخرى : إن للقتال في القرآن صورة ذهنية مفهومية ، حملتها الجماعة الاسلامية ، التي آمنت بالدين الجديد والكتاب المجيد . وصورة أخرى مادية عملية راعتها تلك الجماعة في سلوكها وتطبيقها القتالي ، أو كان يجب أن تراعيها .

وتلتئم الصورتان معاً لتكونا الصورة العامة الشاملة للقتال في القرآن ؛ إذ لكل منهما دوره الفعال في التحميس له وتحريض المقاتلين عليه وإحراز النصر ، ومن ثم تحقيق الأهداف والقيم التي شرع من أجلها جهاد الأعداء . تلك القيم والأهداف التي بذلوا من أجلها النفس والمال ، وفارقوا لتحقيقها الأهل والولد .

المبحث الأول : الصورة الذهنية التصورية او (المفهومية) لمقومات النصر :

وهي الصورة التي تقوم عليها (خصائص) القتال في القرآن ، والمفاهيم المتعلقة به . وهي المفاهيم التي حملها المسلمون في أذهانهم وتمثلوها في فكرهم ، فصارت جزءاً من عقيدتهم ووجودهم ، قبل أن يخوضوا معارك تحرير أنفسهم من ربقة الضلال والشرك والظلم ، وتحرير الإنسان من ظلم الإنسان في الشرق والغرب . وأهم هذه الخصائص :

١ ــ ان هذا القتال الذي كُتب على المؤمنين ليس تعسفاً على أحد ، أو قهراً للبشرية ، بل هو فعل يستهدف الخير ويرمي إلى نشر العدل والحق ، وحماية العقيدة السمحة المنزلة من السماء ، وحفظ كيان الأمة من التشتت والصيرورة طعمة للأجنبي الذي يتربص بها الدوائر . ولذلك فإن هذا القتال بعيد عن التعصب المقيت ، وعن ثارات من لم يهتدوا بالإسلام بعدُ ، ونحوهما مما أماته الإسلام . فهو على هذا بخلاف قتال أولئك ، الذي قد ينشب بين فريق وفريق لأتفه الأسباب ، ويدور على وفق أعراف ما قبل الإسلام وحميتها ومعتقداتها ، التي ليس لها مثل تلك الأهداف التي خطها الكتاب المبين .

ولقد فرق القرآن في غير موضع بين القتالين : قتال المسلمين ، وقتال المشركين ، المبني على هذين المفهومين المتضادين ، فقال في أحد المواضع : (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً) (١) .

و (الطاغوت) : (فاعول) مشتق من الطغيان وهو تجاوز الحد . وقد قيل في دلالته القرآنية أقوال يجمع بينها كلها تجاوز الحد إلى غير الحق . فقد قيل : (الطاغوت) : الشيطان ، وقيل : الكاهن ، والساحر ، والمارد من الجن أو الإنس ، والصارف عن طريق الخير ، وقيل : الأصنام (٢) .

والحق أن (الطاغوت) اسم شامل يضم كل هذه الأشياء التي يجمع بينها عنصر الطغيان وتجاوز الحق إلى الباطل . ولذلك قال الراغب (٣) (ت نحو ٤٢٥هـ) :

---

(١) البقرة : ٧٦ .

(٢) الراغب : مفردات الفاظ القرآن ص ٣١٤ (طنى) ، والطوسي : التبيان في تفسير القرآن ٣١٢/٢ .

(٣) مفردات الفاظ القرآن : نفس المكان .

«والطاغوت : عبارة عن كل متعد ، وكل معبود من دون الله» .

ومن هذا المنطلق السامي في مفهوم القتال ، وضع القرآن قاعدة تتعلق به ، وهي مقاتلة من يقاتل المسلمين من اعدائهم ، دون الاعتداء الذي يعني : « مجاوزة ما حدّه الله لهم ، مما فيه صلاح العباد» (١) . وهذا قائم على دلالته اللغوية ، إذ أصله في اللغة مجاوزة الحد ، فيقال : عدا فلان :إذا تجاوز حدّه في الإسراع (٢) . وعلى هذا قال تعالى :

(وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) (٣)

وقد قيل في دلالة هذا التركيب الفعلي ، الذي جرى بأسلوب النهي أقوال : منها : (لا تعتدوا) بابتداء القتال ، او بمقاتلة من لا يستحق القتال ، ولم يُرد قتالكم . ومنها : (لا تعتدوا) بمقاتلة النساء والشيوخ والصبيان (٤) او من أعطيتموه الأمان ، وقيل : (لا تعتدوا) بالقتال على غير الدين (٥) ...

ويمكن أن تنضوي هذه الوجوه كلها تحت مفهوم (عدم الاعتداء) ، فيكون مفهومه أعم وأشمل من تقييده بواحد منها ، مع عدم الدليل على ان ذلك الواحد هو المراد . والقرآن — كما هو المروي عن النبي (ص) : «ذو وجوه محتملة ، فاحملوه على أحسن وجوهه» (٦) . وأحسن الوجوه في مثل هذه الحال حمله على العموم ، لأن المعنى يكون به أغنى وأتم ، ما دام اللفظ محتملا

---

(١) التبيان ١٤٣/٢ .
(٢) التبيان ١٤٤/٢ .
(٣) البقرة : ١٩٠ .
(٤) الزمخشري : الكشاف ٢٦٠/١ .
(٥) التبيان ١٤٣/٢ .
(٦) الزركشي : البرهان في علوم القرآن ١٦٣/٢ .

لكل ما ينضوي تحت ذلك المعنى العام من مفرداته التي قيلت ، ويصدق عليها جميعاً .

وقال تعالى في موضع آخر :

(لا ينهكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من ديارهم أن تبرّوهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهكم عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون) (١) .

٢ — إن تحقق الأهداف السامية التي شُرع من أجلها القتال ، لا يتم بغير تحقق النصر ، وإن هذا النصر — كما يصوره القرآن — مستمد من عند الله ، فهو الذي يمنحه عباده المؤمنين إذا عزموا عليه ، وبذلوا النفس والمال ، قال تعالى : «وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم» (٢) ، وقال :

(وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم) (٣) .

وفي تكرار لفظتي (عزيز) و (حكيم) في الآيتين إشعار بأن مانح هذا النصر ، عزيز لا يضام ولا يقهر ، وأنه حكيم يضع الشيء في موضعه ، فجاء نصره خاصاً بالمؤمنين الصادقين في بذلهم ، الملتزمين بما أمروا به من مسببات النصر ، دون غيرهم من الناس . ذلك ان النصر بما أنه في المفهوم القرآني (في سبيل الله) ، فإن بينه وبين من شُرع القتال في سبيله — وهو الله سبحانه — ، تلازماً كتلازم المسبّب بالسبب ، والمؤثر بالمؤثّر ..

وفي استعمال أداة الحصر (إلا) في الآيتين الكريمتين ، مايشعر بأن النصر لا يتحقق إلا بقدرة الخالق سبحانه ومشيئته . ولا يتعارض هذا المفهوم بطبيعة

---

(١) الممتحنة : ٨٠-٨١ .
(٢) آل عمران : ١٢٦ .
(٣) الأنفال : ١٠

الحال ، مع إعداد أسباب النصر وأدواته من مقاتلين ، وتدريب ، وعُدد ، وأسلحة ، ومناورة . بل إن النصر لا يتحقق — كما يصوره القرآن — ، إلا بعد أن تستبين هذه النية في قلوب المؤمنين المقاتلين ، وتتجلى مظاهرها عليهم في مرحلتي الإعداد للقتال ، والممارسة الفعلية له في ساحة النزال .

فليست رمية الرامي منه ، حين يرمي عدوه متمثلا هذه المفاهيم والقيم في ذهنه ومشاعره ، بل هي رمية سدّده الله فيها ، فأناله من عدوه ما أراد . ولهذا خاطب الله نبيه المصطفى القائد محمداً (ص) وجماعة المؤمنين حين ثبتوا أمام كثرة المشركين فهزموهم ، بقوله :

(فلم تقتلوهم ولكنّ الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) (١) .

بل ان الآية لتدل على ان الرامي — في الحقيقة — والقاتل للأعداء هو الله وليس النبي (ص) والمؤمنين . قال الزمخشري (٢) (ت ٥٣٧هـ) :

«يعني ان التي رميتها ، لم ترمها أنت على الحقيقة ، لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمي البشر . ولكنها كانت رمية الله ، حيث أثرت ذلك الأثر العظيم . فأثبت الرمية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن صورتها وجدت منه . ونفاها عنه ؛ لأن أثرها الذي لا يطيقه البشر فعلُ الله عز وجل. فكان الله هو فاعل الرمية على الحقيقة ، وكأنها لم توجد من الرسول صلى الله عليه وسلم أصلاً» .

فالعلاقة في هذا النفي والإثبات ، إنما هي علاقة المسبب بالسبب ، من حيث انه سبحانه هو السبب في ذلك الرمي ، بالتثبيت والتسديد واللطف ، ولهذا قال الطوسي ، وقد لفته إسناد القتل إلى الله سبحانه ونفيه عن النبي (ص) وأصحابه :

---

(١) الأنفال : ١٧ .
(٢) الكشاف ٩/٢ .

«نفى الله أن يكون المؤمنون قتلوا المشركين يوم بدر ؛ فقال : (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) ، وإنما نفى القتل عمن هو فعْله على الحقيقة ، ونسبه إلى نفسه ، وليس بفعل له ؛ من حيث كانت افعاله تعالى كالسبب لهذا الفعل ، والمؤدي اليه ، من إقداره إياهم ومعونته لهم وتشجيع قلوبهم فيه ، والقاء الرعب في قلوب أعدائهم المشركين ، حتى خذلوا وقتلوا على شركهم عقاباً لهم . وقوله : (وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى) : مثل الأول في أنه نفي الرمي عن النبي صلى الله عليه وآله ، وان كان هو الرامي . وأضافه إلى نفسه من حيث كان بلطفه وإقداره» (١) .

٣ — إن الثواب الإلهي يتحقق للمقاتلين بمجرد القتال ، لا بشرط القتل . فإذا بقوا على قيد الحياة فهم مأجورون بقتالهم ، وإذا نالوا الشهادة بالقتل ، فهي مرتبة أخرى من الثواب ، أسمى من تلك التي تنال بالقتال من غير شهادة ، إذ تقع في نطاق الأجر العظيم الذي وعد الله به المؤمنين المقاتلين ، فقال تعالى : (ومن يقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يَغْلبْ فسوف نؤتيه أجراً عظيماً) (٢) .

فبين القرآن أن ثواب المقاتل يتحقق بمجرد قتاله ، فينال أجراً عظيماً ؛ إذ أن القتال في سبيل الله ، كما ذكر المفسرون : «أعظم الجهاد وعليه أعظم الأجر» (٣) .

والأجر ، على ثلاث درجات : أعلى وأوسط وأدنى ، فالله سبحانه يؤاجر على القتال في سبيله بالأجر الأعظم ، الأعلى ، ومن هنا وصفه بأنه أجر عظيم (٤) . كما أنه يجعل للشهداء المنزلة الكبرى من هذا الأجر العظيم الذي كتبه للمقاتلين .

---

(١) التبيان ٢/٩٣ .
(٢) النساء : ٧٤
(٣) التبيان ٣/٢٥٧
(٤) التبيان ٣/٢٥٨ .

٤ — إن النصر الذي يطمح اليه المؤمنون من القتال ، والذي وعدهم به ربهم ، إنما هو نصر متبادل بينهم وبينه ، فليس هو من طرف واحد ، بل هو مشروط بالتناصر بينهما ، وقائم على ذلك . فلا يحرز المؤمن نصر ربه له في ساحات الجهاد — على ما يقرره القرآن — إلا بنصرة ذلك المؤمن له . وليس لله في الواقع حاجة بهذا النصر دون شك ؛ لأنه الغني ، والناس هم الفقراء ، كما ورد ذلك في سورة فاطر (١) ، الا ان في النصر وهو الظفر على الأعداء (٢) إحقاقاً للحق وخيراً للمؤمن نفسه ، وللجماعة المؤمنة كلها ، بل للإنسانية ؛ لأنه نصر للقيم الرفيعة والعقيدة الصحيحة التي ينبغي أن تسود فيها .

ولقد ضمن القرآن للمقاتلين النصر بشرط أن ينصروا ربهم بقوله :

(ياءيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم) (٣) .

فعبّر عن ذلك بأسلوب الشرط ، كما هو واضح ، واراد بنصرتهم ربهم : الاستقامة على دينه ، والعمل على رفعته ، ومجاهدة عدوه ، ودفعه بكل ما أوتوا من قوة وقدرة . فهذا كله من مصاديق دلالة نصرهم ربهم الله وصوره .

إلا ان الذي يفهم من كلام هارون بن موسى (ت أوائل ق ٢هـ) ، تحديده ذلك بتوحيد الله ، فقد قال : «يعني ان يعينوا الله ورسوله حتى يوحد» (٤). غير ان التوحيد في الواقع في كلامه غاية لا وسيلة ، وإنما الوسيلة أعم من ذلك ؛ لأنّ إعانة الله ورسوله — على حد تعبيره — أعم من أن تتحدد بشيء دون شيء من أعمال الجهاد ونصرة الدين والحق . ولهذا قال الراغب (٥) :

---

(١) الآية ١٥ .
(٢) هارون بن موسى : الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ص ٢٥٠
(٣) محمد : ١٨
(٤) الوجوه والنظائر في القران الكريم ص٢٥١ .
(٥) مفردات الفاظ القرآن ص٥١٦ (نصر) .

«نصرة الله للعبد ظاهرة ، ونصرة العبد لله هي نصرته لعباده ، والقيام بحفظ حدوده ، ورعاية عهوده ، واعتناق أحكامه ، واجتناب نهيه» .

٥ — إن هذا النصر الذي يطمح اليه المؤمنون من القتال مضمون ، فهو لا يتخلف أبداً ما دام المؤمنون قد حققوا أسبابه ومستلزماته الذهنية والعملية ، ذلك انه ليس نصر الانسان الضعيف الذي قد لا يغني نصره شيئاً ، بل هو نصر الإله القادر القوي العزيز الذي (ليس كمثله شيء) (١) كما وصف سبحانه نفسه .

فإذا نصر سبحانه من يشاء من عباده ، فلا غالب ألبتة لمن نصر ، ولذلك قال : (ان ينصركم الله فلا غالب لكم) (٢) ، فأفادت هذا النفي المطلق (لا) النافية للجنس في قوله : (فلا غالب لكم) ، إذ هي تنفي أن يكون أحد غالباً للمؤمنين ، إن اراد الله نصرهم وغلبتهم .

وعند هذا المفهوم والاعتبار تسقط جميع الحسابات الذهنية التصورية ، والمادية العملية ، التي لا تعي هذه الحقيقة ، وتؤمن بها إيماناً مطلقاً .

وإذا كان النصر خاضعاً لمشيئة الله ، ومرهوناً بقدرته كما دل النص المذكور آنفاً ، فإن الخذلان يكون كذلك ؛ إذ لا ناصر للمؤمنين على الحقيقة ، ان لم ينصرهم الله . وقد دل على ذلك الاستفهام الذي يراد به النفي ، ويشعر مع ذلك بالتوبيخ في قوله بعد ذلك في سياق الآية نفسها :

(وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده) (٣) ؟ !

بل إن القرآن يبيّن ان الله سبحانه قد جعل هذا النصر الذي للمؤمنين حقاً عليه ، يفتح به لهم على أعدائهم ، فقال :

---

(١) الشورى : ١١ .
(٢) و(٣) آل عمران : ١٦٠ .

(ولقد ارسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاؤهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) (١) .

على أن النصر قد يكون بوسائل أخرى غير الغلبة في القتال ، كالنصر بالحجة (٢) وإلزام الخصم بالحق ، والثبات على المعتقد ، وتكاثر معتنقيه ، فإن ذلك من مصاديق النصر أيضاً . إذ أن الجانب المادي ليس هو الحسم الدائم للموقف القتالي، بل هناك الى جانبه الجانب المعنوي ولهذا يعد الشهيد منتصراً ، مع أنه منقطع عن الدنيا حساً ، وذلك لأن مبدأه الذي استشهد من اجله كتب له النصر على العدو الذي اراد ان يجعله يستخذي ويستسلم ففوّت عليه الشهيد ذلك بشهادته . فهذا في الواقع نصر ، بل إنه من أعظم النصر . ولهذا فإن آية الشهادة تؤكد هذه الحقيقة إذ تقول : (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما أتاهم الله من فضله) (٣) . ومنه قوله تعالى : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحيوَة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) (٤) ، دال على هذا النصر الذي هو على ضربين : «نصر بالحجة ونصر بالغلبة» (٥) .

٦ — وهو نصر غير محدود بحدود العدد ، بل هو مستمر لاينقطع مدده عن المؤمنين المجاهدين ؛ إذ هم يستمدونه من ربهم كلما احتاجوا اليه ، لإعزاز دينهم ، وبالشروط التي شرطها ربهم عليهم ، لتحقيق هذا النصر وإحرازه والتي أشرنا اليها آنفاً ، وهي نصرته بالمفهوم الذي بيناه أيضاً .ولذلك نجد القرآن يذكر المؤمنين بتعدّد هذا النصر الإلهي وكثرته قائلاً :

---

(١) الروم : ٤٧ .
(٢) التبيان ٨٥/٩ .
(٣) آل عمران : ١٧٠ .
(٤) غافر : ٥١ .
(٥) التبيان ٨٥/٩ .

(لقد نصركم الله في مواطن كثيرة) (١) .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإنّ القرآن لم يجعل الكثرة العددية سبباً في نَصْر ، ولا القلّة سبباً في خيبة وخذلان، بل ألغى هذا المفهوم الذي كان سائداً في التصوّر البشري من أساسه ، وأقام النصر على خصائص ومقوّمات تتجاوز الأطر الشكلية المتمثلة بمجرد وفرة العدد وكفايته ، الى المضامين الذهنية والفكرية ، والبواعث النفسية والوجدانية ، التي غدت في ظل القرآن وقيمه ومفاهيمه ، الفاعل الحثيث في إحراز النصر بين فئتين متكافئتين أو متباينتين في العدد .

وبذلك صار المؤمن يحمل في ذهنه ، ويتمثل في مشاعره هذه الحقيقة الجديدة ، التي استمدها من القرآن ، وهي أن الاعداء لو كانوا أكثر نفراً، فإن ذلك لن يغنيهم شيئاً إن أراد الله أن يذيقهم الهزيمة، ويذيق المؤمنين النصر . وهو مانتبيّنه في تهديد الكافرين بقوله تعالى :

(ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت وأنّ الله مع المؤمنين) (٢) .

وأجرى القرآن هذه الحقيقة على ألسنة مؤمنين من الأمم السالفة ، حين واجهوا جيشاً يفوقهم عدداً ، فقالوا بروح الواثق بالنصر مع قلة العدد :

(كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) (٣) .

وذلك جواب منهم لمن قال من ضعفاء المقاتلين :

(لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) .

إذ بنى هؤلاء الخائفون الموقف القتالي على تصوّر مادي صرف ، هو كثرة العدو وقلّتهم ، وبناه أولئك على موقف معنوي صرْف هو ثبات

(١) التوبة : ٢٦
(٢) الأنفال : ١٩ .
(٣) البقرة : ٢٤٩ .

المقاتلين وعزمهم على أن يهزموا عدوّهم ، متوكلين في قتالهم له على ربهم. وهذا المفهوم الذي جاء به القرآن على خلاف ما كان يتصوره العرب قبل الإسلام ، بل غيرهم أيضاً ؛ إذ كانت الكثرة تعني عندهم القوة والعزة ، حتى قال شاعرهم مخاطباً قوماً كثْراً في عددهم ، كان يراهم أعزاء بهذه الكثرة :

ولستَ بالأكثرِ منهم حصىً وإنما العزّة للكاثـــر (١)

بل إن كثرة المؤمنين أنفسهم في المفهوم الذي جاء به القرآن ، لا تغني عنهم شيئاً ، إن لم يلتزموا بتلك المفاهيم التي أراد لهم الالتزام بها ، وهي أن الكثرة العددية ليست هي المعيار الذي يُحرز به النصر ، بل وراءها ما أكبر منها وأعظم . فليس لهم إذن أن يغتروا بتفوقهم العددي على عدوهم وليس لهم أن يلبسهم الزهو بذلك ، بل لابد من النصر الإلهي والتسديد الرباني ، والبعد عن الاغترار بالماديات وحدها .

وقد تمثل ذلك واضحاً في معركة حنين ، التي بلغ فيها عدد المسلمين اثني عشر ألف مقاتل ، فيما هو مشهور من الروايات (٢) . فلما أعجبتهم هذه الكثرة ، وظنوها السبب المحتّم في نصر سيحرزونه على أعدائهم ، كان في هذا التصور إخلالاً بما كان عليهم أن يتصوروه من عدم الاعتدا بالقوة العددية وحدها . فكان ما كان من ترك الأكثرين منهم لأرض المعركة بحيث لم يثبت فيها مع النبي (ص) إلا نفر من الصحابة ، ولكن الله سبحانه رفد هؤلاء الجند الثابتين في الأرض بجند منزلين من السماء ، بملائكة مردفين فكتب لهم بذلك النصر ، فكان تحققه بهذا العدد القليل من المقاتلين من الأحداث الكبرى في تاريخ الإسلام .

---

(١) أبو زيد : النوادر ص ٢٢٠ ، ١ وابن هشام مغني اللبيب ٢/٥٧٢ الشاهد ٨٢٣ . :
(٢) تنظر سيرة ابن هشام ٣/٨٩٢ ، والمسعودي : التنبيه والإشراف ص٢٣٤ .

وقد عبّر القرآن عن ذلك كله بهذا الإيجاز الرائع :

(لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذّب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم) (١) .

ثم عاد القرآن بعد ذلك ليحدد في أول عهد المسلمين بالإسلام عدد المقاتلين الذين ينبغي أن يثبتوا للأعداء ، والعدد الذي يقابلهم منهم . فجرى ذلك على مرحلتين بحسب أوضاع المسلمين في بدء الدعوة وعددهم إذ ذاك ، ثم ماحدث بعد ذلك من تطوّر وتغير في أوضاعهم ، وما تحملوه من جهد ومشقة من أجل إعزاز الدين وحماية العقيدة . وهاتان المرحلتان هما :

(أ) أن يثبت الواحد من المؤمنين للعشرة من المشركين ، وهي نسبة تشعر — بدون أدنى ريب — بالفارق الكبير جداً بين معنويات المؤمنين ومعنويات المشركين . وقد علل القرآن احراز النصر — مع هذا الفارق البالغ بين العددين — بالفارق الكبير بين ذهنيات ومفاهيم كل من المؤمنين والمشركين ، فوصم الأخيرين بعدم الوعي والادراك لماهية هذا القتال الدائر بين الفريقين وغاياته الخيّرة السامية ، فقال : (ياأيّها النبيّ حرّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لايفقهون) (٢) .

وقد فقه المسلمون هذه الحقيقة في أذهانهم ، واستقرت بعد ذلك في نفوسهم ، وصارت من ثمّ منهجاً عملياً في قتالهم ، فلم يبالوا بعدد الأعداء

(١) التوبة : ٢٦ — ٢٨ .
(٢) الأنفال : ٦٥ .

مثلما لم يبالوا بعدتهم ، فثبتوا لذلك في معركة (مؤتة) ، التي جرت بينهم وبين الروم ، من أجل إحراز النصر المؤزر عليهم ، مع أن جيش الروم كما في سيرة ابن هشام (١) . (ت ١٨٨هـ) وغيرها (٢) ، بلغ فئة ألف مقاتل ، انضم اليه من لخم وجذام والقين وبهراء وغيرها ، مئة ألف أخرى . مما جعل المسلمين يفكرون في أمرهم لمواجهة هذا العدد الهائل من العدو ، إذ لـــم يزيدوا على ثلاثة آلاف مقاتل ، ولكنهم كانوا تحت إمرة قادة شجعان، وفي مقدمتهم البطل الشاعر الكبير عبدالله بن رواحة الذي لم ينكل لمرأى هذه الجحافل الغاشمة ، ولا لما أصاب قائدين استشهدا في المعركة قبله ، بل حمل الراية واقتحم نحو الأعداء مكبراً مرتجزاً ، حتى استشهد ، فاختاروا بعده خالد بن الوليد لحمل الراية ، «فلما أخذ الراية دافع القوم ، وحاشى بهم ، ثم انحاز وانحيز عنه ، حتى انصرف بالناس» (٣) . فكانت من أشق معارك المسلمين . او قُل : معارك الأمة العربية المسلمة ضد الخطر الأجنبي وجوره وتحكمه وكفره .

(ب) أن يثبت الواحد للاثنين ، وهذه هي المرحلة الثانية ، وذلك بعد أن زالت الضرورة بثبات الواحد للعشرة ، وبعد أن قاتل المسلمون فترة طويلة بهذه النسبة ، فأراد الله سبحانه التخفيف عنهم ،فجعل الواحد يثبت للاثنين . وهذا يعني ثبات المسلمين للجيش الذي يبلغ ضعف عددهم ، وهو ما يحتاج إلى شجاعة أيضاً . قال تعالى :

(الئن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابـرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم الف يغلبوا الفين بإذن الله والله مع الصابرين) (٤).

---

(١) ٨٣١/٣

(٢) المسعودي : التنبيه والإشراف ص ٢٣٠ .

(٣) سيرة ابن هشام ٨٣٣/٣ – ٨٣٤ ، والمسعودي : التنبيه والاشراف ص٢٣١ .

(٤) الأنفال : ٦٦ .

فيلحظ من هذا النص الكريم ، ان المقاتلين من المسلمين في حالة ضعفهم يثبتون لمن هو ضعفهم عدداً . وفي قوله تعالى في آخر الآية : (والله مع الصابرين) ، إيحاء لهم بضرورة التحلي بالصبر في مثل هذا الموقف ، إذ يكون عون الله وتأييده ونصره معهم جزاء على صبرهم في سبيله .

٧ ـ وقد يكون النصر سجالا بين المؤمنين وأعدائهم ، وليس له صفة الثبات المطلق دائماً ، إذ هو مرهون بموقف المقاتلين من حيث الاعتبار الذهني التصوري لحالهم وحال أعدائهم ، من مثل كونهم على الحق ، وأولئك على الباطل ، وكون الله ناصرهم وحدهم ، ولا ناصر لعدوهم . فضلاً عن عدم اعتبار العدد في القتال ، كما أسلفنا بيانه .

فهذا الموقف الذهني التصوري ، ثم يلتحم به الموقف المادي العملي ، وهو البذل ، والقتال ، والثبات ، واتخاذ الخطط السليمة ، والانقياد لأوامر القيادة ، وما إلى ذلك مما يتعلق بالعمل الميداني الفعلي . فإن أخل المقاتلون بواحد أو اكثر من هذه الشروط ، فليس لهم بعد ذلك رجاء في النصر الإلهي الذي وعد به المؤمنون الصادقون ، لأن هذا النصر مشروط بنصرهم لربهم سبحانه ، على الوجه الذي سبق بيانه . وهو نصر لا يتجزأ ؛ لأنه ينبغي أن يكون من لدنهم متكامل الصفات في المواقف القتالية . ولذلك فإنهم بعد أن ذاقوا النصر في فاتحة المعارك : بدر ، فقتلوا سبعين من المشركين وأسروا سبعين ، ذاقوا النصر أيضاً في اول معركة أحد ، وهي المعركة التي أعد المشركون لها عُدتها ليثأروا لقتلاهم في بدر ، وأكثرهم من صناديد قريش ورؤسائها . ففر امامهم المشركون لا يلوون على شيء في بادىء الأمر .

إلا ان هذا الانتصار ما لبث أن غدا انكساراً ، وذلك حين أخل عدد من المقاتلين بأهم ما ينبغي الالتزام به في المعارك ، وهو تنفيذ الخطة التي وضعتها

القيادة بدقة واحكام ، والانقياد لأمر تلك القيادة في دور المقاتلين أفراداً وجماعات . فهذا من الناحية القتالية مقرر ولا يُختلف فيه . فكيف إذا كان راسم الخطة نبياً مرسلاً يوحى اليه ؟ لا شك انها ستكون محكمة لا يطرقها الخلل ، ولا يتناولها الارتجال ، والاجتهاد المتعجل الخاطىء . ولاشك أن الحرص على تنفيذها يكون اشد وأعظم .

وخلاصة هذه الخطة التي وضعها النبي محمد (ص) ، ان المشركين حين قصدوا المدينة لقتال المسلمين ثأراً لقتلاهم في بدر ، وعرف النبي (ص) الجهة التي سيقبلون منها ، بعد دراسة لجغرافية المنطقة ، كما تقتضيها فنون الحرب ومتطلباته ، استعد الجيش الإسلامي لهم فيها . ثم بحثوا في الثغرات والمداخل التي يمكن أن ينفذ العدو منها اليهم ، فوجدوا انها من جهة جبل أُحد ، وهو جبل على مقربة من المدينة ، متطامن — ما يزال قائماً إلى اليوم — . ورأوا أن يفسدوا على المشركين خطتهم لو أرادوا أن ينفذوا إلى خطوط المسلمين الخلفية من جهة الجبل ، فوضعوا مجموعة من الرماة عليه ليحموا ظهورهم بهم .

وقد احتمل النبي (ص) بفهمه المسدد من لدنّ ربه ، وبفطنته البالغة وقيادته الواعية ، ان هؤلاء الرماة قد يتركون مواقعهم إذا رأوا نصر إخوانهم المقاتلين على المشركين ، او غلبة المشركين عليهم . وفي كلتا الحالتين يحدث اضرار كبير بإخوانهم لانكشاف ظهورهم لأعدائهم ، كما اشرنا آنفاً ، وصيرورتهم هدفاً لهم من جهتين . ولهذا أمرهم النبي القائد(ص) الا يتخلوا عن مواقعهم على الجبل ، مهما كانت النتيجة، قائلا لهم : «انضحوا بالنبل عنا لا يأتوننا من ورائنا ، ولا تبرحوا ، غُلبْنا أو نصرنا» (١) .

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ١٧٦/١ .

إلا ان فريقاً من هؤلاء الرماة ذُهلوا عن خطورة احتفاظهم بمواقعهم في جميع الأحوال ، حين رأوا جيش المشركين يفر أمام جيش المسلمين ، بعد أن سقط من المشركين قتلى ، وأثخن آخرون بالجراح . فنسي الرماة في نشوة هذا النصر المبين أمر القائد ، وفرطوا فيه ؛ إذ تركوا مواقعهم الحصينة ونزلوا من الجبل يجمعون الغنائم مع الجامعين ، ظناً منهم ان كل شيء قد انتهى ، وان لا صولة ، بعد هذا الانكسار ، للمشركين ، ولم يُجدهم نهي الآخرين — الذين ثبتوا على الجبل — لهم نفعاً ، ولا تذكيرهم بأمر الرسول (ص) رداً .

وقيل أيضاً في سبب ترك الرماة المركز طلباً للغنيمة . انهم قالوا : نخشى أن يقول رسول الله (ص) : من أخذ شيئاً فهو له ، وان لا يقسم الغنائم كما لم يقسم يوم بدر ، فقال النبي (ص) : ظننتم أنا نغلّ ولا نقسم لكم ؟ ! فأنزل الله (١) سبحانه : (وما كان لنبي أن يغلّ ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة) (٢) ، ومعنى يغلّ : يخون (٣) ، فنفى عنه الخيانة ، وهي التي لاتليق بمنزلته وعصمته ، ولذلك قال (ص) (لا إغلال ولا إسلال) (٤) .

ومهما يكن من أمر فإن ترك الرماة مواقعهم على الجبل ، هيأ الفرصة للمشركين في الهجوم عليهم من الخلف — كما توقع الرسول (ص) تماماً — . وكانوا قد اعدوا لهذا الموقف عدته في حال انكسارهم ، وذلك بأن جعلوا في الجانب الآخر من الجبل فرساناً متأهبين للقتال . ولذلك كان اقتحامهم مفاجأة للمسلمين ، إذ كانوا آمنين من هذا الاتجاه لمرابطة الرماة في المنفذ منه

---

(١) الواحدي : أسباب النزول ص٧٣ .
(٢) آل عمران : ١٦١ .
(٣) مفردات ألفاظ القرآن ص ٣٧٦ (غل) .
(٤) المصدر نفسه : المكان نفسه .

اليهم . وشجع هذا الاقتحام فلول المنهزمين من المشركين ، فتماسكوا وعادوا إلى ارض المعركة ثانية ، مما أوقع المسلمين بين نارين ، فكان ما كان من شج جبهة الرسول (ص) ، وكسر رباعيته (١) ، واستشهاد عدد من المسلمين .

فقد أدى ذلك إلى ما هو أضر من مجرد الجراح ، إذ انهزم كثير من المسلمين ، واستشهد فريق منهم ، وثبت مع النبي (ص) عدد من اصحابه فيهم حمزة عليه السلام ، ثم ما لبث ان استشهد كذلك .

وحين انجلت المعركة وعرف المسلمون ما أصابهم ، انبروا يتساءلون ، أو قل انبرى يتساءل كثير منهم قائلين : من اين أتانا هذا الذي أصابنا ؟ . فبين لهم القرآن بصريح العبارة ان ذلك كان من عند أنفسهم ، لتركهم مراكزهم التي امروا بملازمتها على كل حال ، ولعدم التزامهم بأمر القائد (ص) ، وذلك قوله تعالى :

(اوَ لمّا اصابتكم مصيبة قد اصبتم مثيلها قلتم أنّى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير) (٢) .

ولما كان هؤلاء المؤمنون قد أحسّوا بخطئهم ، وندموا على ما فرط منهم وصمموا على ألا يعودوا لمثل هذا الخطأ الجسيم والتصرف الفردي الذي قلب ميزان المعركة ، فجعله مرجوحاً بعد ان كان — للمسلمين — راجحاً ، تجاوز عنهم ربهم ، وغفر لهم ما فرط منهم ، فقال :

(ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلّهم الشيطان ببعض ماكسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور رحيم) (٣) .

---

(١) أسباب النزول ص٧٣ .
(٢) آل عمران : ١٦٥ .
(٣) آل عمران : ١٥٥ .

ثم يعمد القرآن بعد هذه التسرية النفسية ، وإزالة الشعور بالخطأ الجسيم ، بشحذ هممهم لئلا يظنوا ان هزيمتهم في هذه المعركة ، معركة أحد ، نهائية ، فيقعد بهم الانكسار النفسي عن القتال ، او تستحيل خسارتهم المادية — وهي هنا في الأغلب بشرية — إلى خسارة نفسية ، فيقول :

(ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) (١) .

وعبارة (إن كنتم مؤمنين) بشرطيتها ، لها تأثيرها النفسي في استجاشة ضمائرهم وتحريك إحساساتهم وسط تلك المحنة ، وهي انهم مؤمنون لا ينبغي ان يصيبهم الخور والوهن عن العمل من اجل الدين ، والاستعداد من جديد لملاقاة المشركين كلما همّوا بقتال .

٨ — ومما غرسه القرآن في اذهان المؤمنين ، ان القتال وان كان مكروهاً لديهم ؛ لما فيه من المشقة والابتعاد عن الأهل والولد والديار ، إلا أن لهم فيه الخير كل الخير ؛ لما فيه من إحقاق الحق ، ورد الباطل ، ودفع الشر وهو أمر تخفى عاقبته عليهم ، ولكنها لا تخفى على الله الذي يعلم الغيب وحده يقول تعالى في بيان هذه الحقيقة الثابتة :

(كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون) (٢) .

فهذا مما يتعلق بالصورة الذهنية المفهومية لمقومات النصر في القرآن .

---

(١) آل عمران : ١٣٩ .

(٢) البقرة : ٢١٦ .

المبحث الثاني :

الصورة الماديّة العمليّة للمقوّمات :

تتعلق هذه الصورة بمقومات القتال المادية في القرآن ، وهي والصورة الذهنية وجهان لعملة واحدة ، اذ لا يمكن قطع احدهما دون قطع الآخر . فأحدهما مكمل لما يقابله . فالصورة الأولى تتعلق بالمفاهيم ، وهذه تتعلق بالتطبيق — تلك تتعلق بالمُثُل ، وهذه تتعلق بالعمل . وهذا يفسر لنا التلازم العضوي — الذي وصفنا آنفاً — بينهما .

واهم مقومات النصر المادية التي تحدث عنها القرآن هي :

١ — اعداد القوة : وهي هنا حسية مادية ، عبر عنها القرآن بقوله تعالى : (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة) (١) . فالقوة هنا قد تكون عدة للسلاح الذي اهم مادته (الحديد) ، والذي بيّن القرآن قيمته القتالية ، فضلاً عن فوائده الأخرى اليومية ، بقوله :

(وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) (٢) .

فبيّن بعبارة (فيه بأس شديد) ، ما يصنع منه للقتال ، من سيوف ، ورماح ، ودروع ، ومجنّات ، وخوذ ، وما اليها من آلات الحرب واسلحته في القديم . ويصدق عليه بدون شك كل ما يصنع منه للقتال في هذا العصر وما يليه من عصور ، كالبنادق ، والمدافع ، والدبابات ، والطائرات ، والصواريخ وما اليها . فهذه ايضاً من مصاديق مفهوم (القوة) في الآية التي ذكرت فيها هذه اللفظة دالة على الإعداد لمجابهة الأعداء . وتنكير اللفظة يوحي بهذا العموم الذي تضمنته .

---

(١) الأنفال : ٦٠ .
(٢) الحديد : ٢٥ .

على ان من مصاديق (القوة) : المقاتلين المدربين المهيئين للنزال ، إذ هم يمثلون القوة البشرية ، وهي القوة الفاعلة التي تحيل فلز الحديد إلى سلاح ثم تستخدمه في ردع الأعداء . ولهذا قالوا في معنى قوله تعالى :

(لو ان لي بكم قوة) (١) ، أي : «ما أتقوى به من الجند ، وما أتقوى به من المال» (٢) . وجعلوا فيه قوله تعالى : (قالوا نحن اولوا قوة واولوا بأس شديد) (٣) .

ويلحظ ان في قوله تعالى في الآية التي ذكرناها سالفاً : (ما استطعتم) ، اشارة وتوجيهاً إلى اعداد اقصى ما يستطاع من هذه القوة ، وان في تنكير (قوة) إيحاء بذلك ايضاً ، اذ يفيد التنكير في بلاغة القرآن ، وفي الكلام ، في جملة ما يفيد ، الإعمام والتكثير . فالقوة اذن كما قال الزمخشري (٤) :

«كل ما يُتقوى به في الحرب من عُدَدها» .

٢ — ومن مصاديق (القوة) ودلالتها في الآية الكريمة ، كل ما يحمل المقاتلين إلى ساحة المعركة ويعيدهم منها ، ويمكنهم من الكر على اعدائهم ، والمناورة ، وما إلى ذلك مما يتعلق بالتحرك ، والانتقال السريع والتغيير ، وهي في وقت نزول القرآن : (الخيل) ، وكذلك في اوقات تلت ذلك الوقت . فهي مكملة للقوة التي امروا ان يعدوا ما استطاعوا منها ، ولذلك عطفها عليها ، فقال : (ومن رباط الخيل) .

وظاهر النص يقتضي ان الخيل شيء آخر غير القوة ، بدليل التعاطف بينهما ؛ اذ لا يعطف الشيء على نفسه ، لأنه يقتضي التغاير بين المتعاطفين ، الا ان وراء ذلك شيئاً آخر غير هذا الظاهر ، اذ يصح في البيان العربي

---

(١) هود : ٨٠ .
(٢) مفردات ألفاظ القرآن ص ٤٣٤ (قوى)
(٣) النمل : ٣٣ .
(٤) الكشاف : ٢١/٢ .

عطف الشيء على ما هو أعم منه توكيداً له، او تشريفاً لمكانته ، وبياناً لقيمته ؛ من بين مفردات العموم الأخرى وذلك بأن يكون من عطف الخاص على العام، وهو اسلوب في القرآن معروف (١) ، وله نظائر ، كالذي في قوله تعالى : (قل من كان عدواً لله وملائكته وجبريل وميكال فإن الله عدوّ للكافرين) (٢) .

فعطف جبريل وميكال على الملائكة مع انهما منهم . ومثله قوله : (حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى) (٣) . وحكى ابو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) عن شيخه ابي جعفر بن الزبير انه كان يقول : ان هذا الضرب من العطف «يسمى (التجريد) ، كأنه جرد من الجملة ، وافرد بالذكر تفضيلاً» (٤) .

ولذلك نجد من المفسرين من عد (الخيل) من مصاديق القوة ايضاً، وانه عطف «رباط الخيل» على القوة : «تخصيصاً للخيل من بين ما يتقوى به على الأعداء» (٥) . ومعلوم ان العرب تخص الخيل ، من بين ما يحمل الانسان، بالعناية والاعتزاز ، حتى ان الرسول (ص) ذكرها في غير حديث بما يدل على ذلك ، كقوله : «الخيل معقود بنواصيها الخير» (٦) ، وقوله : «ظهورها حرز وبطونها كنز» (٧) ، وقد فسر الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ) (بطونها كنز) في الحديث الاخير بأنه «إنما اراد عليه الصلاة والسلام ، ان اصحابها ينتجونها من الأفلاء ، ما تنمى به اموالهم ، وتحسن معه احوالهم ، ثم بين ان مراده (ص) بظهورها حرز : «انها منجاة من المعاطب ، وملجأ عند المهارب» (٨) .

---

(١) السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ٢/٧١ .
(٢) البقرة : ٩٧ .
٣) و(٤) الاتقان ٢/٧١ .
(٥) الكشاف ٢/٢١ .
(٦) الرضي : المجازات النبوية الحديث ٢٩ ص٥٢ .
(٧) و(٨) المجازات النبوية ، الحديث ٤ ص١٩ .

وقد حدد النبي (ص) في حديث آخر الهدف من الإغارة بالخيل ، في قوله : (قلدوا الخيل ولا تقلدوها الأوتار) ، اذ المراد — اذا حمل الأوتار على الاستعارة : « النهي عن طلب اوتار الجاهلية على الخيل ، بشن الغارات وشب النائرات . ومعنى لا تقلدوها : اي : لا تجعلوها كانها قد قلدت درك الوتر فتقلدته ، وضمنت اخذ الثأر فتضمنته . .....

فكأنه عليه الصلاة والسلام قال : قلدوا الخيل طلب اعداء الدين ،والدفاع عن المسلمين ، ولا تقلدوها طلب اوتار الجاهلية ، ودخول مصارع الحمية» (١).

وبذلك حولت مهمة الخيل ، بعد ظهور الإسلام من حال إلى حال ، فغدت وسيلة لحماية دين الله ونشره ، بعد ان كانت وسيلة لثارات الجاهلين والاستعداء فيها .

وتشعرنا (ما) وفعل الاستطاعة في قوله تعالى في الآية : (ما استطعتم) ، بوجوب بذل الجهد في الاعداد للمعركة ، ولذا قال الطبري (٢) (ت ٣١٠هـ) : «ما أطقتم ان تعدوه لهم من الآلات التي تكون قوة لكم عليهم من السلاح والخيل» .

وحين نبحث عن دلالة (القوة) في الآية ، نجد الروايات طائفتين : احداهما تخصصها بشيء معين ، والأخرى تُعممّها بما يتجاوز ذلك التخصيص ، إلى ما هو اشمل واعم . فأما الأولى ، فتقول ان (القوة : الرمي) ، روي ذلك عن النبي (ص) بعدة اسناد ، وبعدة عبارات ، فبعضها يقول : (الا ان الرمي هو القوة ، الا ان الرمي هو القوة) ، وبعضها يقول (الا ان القوة الرمي ، الا ان القوة الرمي) ثلاثاً (٣) .

(١) المجازات النبوية ، الحديث ٢٠٣ ص ٢٥٧ .
(٢) جامع البيان ٣١/١٣ .
(٣) جامع البيان ٣١/١٢ — ٣٣ .

وثمة رواية عن السدي تقول : ان القوة : السلاح (١) . واما الثانية ، وهي التي تذهب إلى العموم فنجدها في رواية عن مجاهد بن جبر (ت ١٠٣هـ) ، فقد روي انه لقي رجلا ومعه (جُوالق) (٢) ، فقال هذا من القوة ، وكان اذ ذاك يتجهز للغزو (٣) . اي ان مجاهداً جعل الجُوالق من مصاديق ما يُعتد به من القوة في مواجهة العدو» . وهذا الوجه هو الذي اختاره الطبري ، على وفق قاعدته ومنهجه في الأخذ بالعموم عند اختلاف وجهات النظر ، ما دام الدليل على التخصيص معدوماً ، لئلا يكون تخصيصاً من غير مخصص . وهو الوجه الذي نختاره ايضاً ، ويعضده تنكير (القوة) ، اذ من معاني التنكير وفوائده الدلالة على العموم (٤) .قال الطبري بعد عرضه الأقوال التي ذكرناها آنفاً :

«والصواب من القول في ذلك ان يقال : ان الله امر المؤمنين باعداد الجهاد وآلة الحرب ، وما يتقوّون به على جهاد عدوّه وعدوهم من المشركين ، من السلاح والرمي وغير ذلك ، ورباط الخيل . ولا وجه لأن يقال عنى بـ(القوة) معنىً دون معنىً من معاني (القوة). وقد عمّ الله الأمر بها» (٥) . أو بعبارة أخرى : كيف تخصص (القوة) بشيء معين ولفظها في النص الكريم عام ؟! على أن التخصيص الذي ذهب إليه السدّي في البعد كتخصيص عكرمة الخيل

---

(١) جامع البيان ٣٤/١٣ .
(٢) الجوالق : كيس توضع فيه الأغذية وغيرها . وهو المسمى (الشوال) في بعض الأقطار تحريفاً للكلمة الفصيحة .
(٣) جامع البيان ٣٤/١٣ .
(٤) ينظر : ابن الزملكاني : التبيان في علم البيان المطلع على اعجاز القرآن ص٥٣ ، وقد ضرب له مثلا قوله تعالى : (سلام عليكم) ، وبين أنه يشعر «بعموم التحية واطلاقها» لتنكيره .
(٥) الطبري : جامع البيان ٣٧/١٣ .

في الآية بالإناث (١) ، إذ لامعنى له ولا مخصّص . وأما الرواية عن النبي (ص) في التخصيص بالرمي ، فقد طرح عنا الطبري مؤونة الإشكال ، حين بيّن أن سندها واهن (٢) ، وهذا يعني عدم الأخذ بها أو الركون الى صحتها.

وفسّر الطبري (تُرْهبون) في الآية بـ (تُخزون) (٣) ،معتمداً على روايات عن عبدالله ابن عباس (رض) ، وأورد بيت الطفيل الغنوي شاهداً على ذلك وهو قوله :

ويلُ أمِّ حيٍّ دفعتم في نحورهم بني كلاب غداة الرعب والرهبِ

وهو في هذا على رأي أبي عبيدة (٤) (ت ٢١٠هـ) ، إذ كان يفسر الرهب بهذا التفسير ، ويحتج له ببيت الغنوي المذكور .

غير أنا لانرى (الرهب) هنا بمعنى (الخزي) ، بل نراه بمعنى (الخوف) فيكون معنى (ترهبون) : تخيفون ، ويعضد هذا الاختيار السياق ، إذ أن الحديث في الآية عن إعداد مايستطاع من السلاح ، وهو مايليق به الإخافة ، اكثر مما يليق به الاخزاء ، واللغة تساعد على هذا التأويل ؛ قال الراغب : «الرهبة والرهب : مخافة مع تحرز واضطراب» واحتج له بقوله تعالى : «لأنتم أشد رهبة» وقوله : «رغباً ورهباً» ، وقوله : «ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم» . وقال في تفسير : «وإياي فارهبون» : فخافون(٥) .

وذهب المفسرون في تأويل (الآخرين) من قوله تعالى في الآية نفسها : (وآخرين من دونهم) على أقوال ، فرأى مجاهد أنهم بنو قريظة ، ورأى السدّي أنهم أهل فارس ، وذهب بعضهم الى أنهم الجنّ !! . وأعمّ ابن

(١) جامع البيان ١٣/٣٤ .
(٢) جامع البيان ١٣/٣٧ .
(٣) جامع البيان ١٣/٣٤-٣٥ .
(٤) مجاز القرآن ١/٢٤٩ .
(٥) مفردات الفاظ القرآن ص٢٠٩ (رهب) .

زيد — وهو تابعي — المعنى ، فرأى أنهم «كل عدوّ للمسلمين» (١) . وهو الأولى ؛ إذ لادليل في اللفظ ولا في الاثر عن النبي (ص) ، يؤيد ماذهب إليه الذين خصصوه بواحد مما ذكروا . ولذلك حمله الطبري (١) على العموم أيضاً ، بأن جعله شاملاً لكل عدوّ للمسلمين ، سواء أكان من اليهود أم من غيرهم ، على وفق منهجه في الأخذ بعموم اللفظ عند عدم القرينة على تخصيصه بشيء معلوم محدد .

فيتبيّن لنا مما مرّ ، أن آية اعداد القوة للقتال قد ختمت بما يعلل وجوب هذا الإعداد ، وقد تضمّن التعليل هدفين مهمين :

أحدهما : تخويف العدو الظاهر العداوة لمنعه من العدوان .

والآخر : تخويف أعداء آخرين ، غير مكشوفي العداوة ، ولا مجاهرين بها ، لايعلمهم المسلمون لأنهم يظهرون لهم المودّة ويستميلونهم بالتزلف إليهم ، مع أنهم يضمرون لهم البغض . ولما كان اليهود في بداية نشوء دولة المدينة المنورة غير مجاهرين بالعداء ؛ وإن كانوا في حقيقتهم أعداءاً ، فإن إعداد القوة على هذا النحو الذي أمر القرآن به ، مثبّط لهم عن كل عدوان يهتمون به . وهذا ماحدث فعلاً في عصر صدر الاسلام . إذ بقي اليهود يحيكون الدسائس ويأتمرون على المسلمين ، ويكاتبون المشركين في مكة سراً ويمالئون المنافقين ، ولا يستطيعون المجاهرة بالعداوة . ثم إنكشف أمرهم بكل وضوح في معركة الخندق ، وهي معركة الأحزاب . فكان لابد من إجلائهم بعد خيانتهم ونقضهم للعهد الذي بينهم وبين المسلمين ،وتنفيذ حكم الله العادل فيهم .

---

(١) جامع البيان ٣٨/١٣ .

ثم كان ما كان من وقوف بلاد فارس وبلاد الروم في وجه الدعوة الاسلامية حتى جاء أمر الله وهم كارهون . فهذا كله من مصاديق قوله تعالى : (ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم) .

وها نحن اليوم في العراق ، نرى مصداق هذا الإعداد للقوة ، كيف استطاع ردع عدوّنا الصهيوني الغادر اللئيم ، عن أن تمتد يده بعدوان على قطرنا أو قطر آخر من التي كان ينوي الاعتداء عليها ، بل اجتياحها، ومنها الأردن .

من الاعداد المادي العملي للقتال ، بناء الحواجز المانعة للعدو :

رسم القرآن صورة حسيّة رائعة فريدة لوسيلة من وسائل ردع العدو ، ومنعه من التغلغل في غير أرضه ، أو العدوان على من لاقدرة له على ردعه، وهو بناء حاجز صناعي ملتحم مع حاجز طبيعي (جانبي جبل) . ويبدو أنه من أعجب الحواجز المتعلقة بالحرب قديماً وحديثاً ؛ إذ هو مع الدوافع الانسانية الصرف اليه ، يدل على ضرب من الابتكار واستعمال الفكر والتدبير في وضع حد نهائي لعدوان متكرر . إنها صورة التحم فيها قدرة الانسان .

التي وهبها الله له — على الابتكار ،وقدرة الخالق الواهب على الخلق فقد التحم عنصرا(الطبيعة الصناعية ، وهو السدّ) ، (الطبيعة الطبيعية ، وهما جانبا الجبل) ، ليكونا أضخم مانع قتالي عرفته البشرية ، كما يجلّيه وصف القرآن الدقيق له ، وما حفظ التاريخ من أخباره . فقد ذكرت المصادر أن طوله مئة فرسخ (١) ، وارتفاعه مئتا ذراع ، وأنه من حديد ، وعرضه نحو خمسين ذراعاً (٢) .

---

(١) الكشاف ٢/٢٧١ .

(٢) الطوسي : التبيان ٧/٩٤ .

ومهما بولغ في ذلك ، فهو على أية حال تعبير عن ضخامته . ويشعرنا بهذه الحقيقة ، النتيجة التي أدى اليها هذا الحاجز القتالي العجيب ؛ إذ أنهى تسلط قوم ذوي طبيعة عدوانية ، ذكر القرآن أنهم «يأجوج ومأجوج» ، وأنهم كانوا يفسدون في الأرض قتلاً ونهباً ، حتى ضجّ منهم الخلق . فلما وصل (ذو القرنين) الملك السيّاح المؤمن الى منطقة ، وصفها القرآن بأنها (مطلع الشمس) ، ورآها بعض المفسّرين في أقصى الشرق(١) ، وجد من ورائها قوماً ضعافاً متخلفين وصفهم بأنهم : (لايكادون يفقهون قولاً) (٢) . فعرضوا عليه أن يبني لهم (سدّاً) ،على أن يمنحوه إزاء ذلك مالاً :(قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سدّاً) .

غير أن الملك الإنساني أبى المال ، الذي منحه الله منه الكثير . وقال لهم: (مامكنّي فيه ربي خير) . ثم طلب منهم بدلاً من ذلك أن يمدّوه بـ(قوة) لبناء السدّ الذي أرادوه ، إلا أنه لم ينوِ بناءه (سدّاً) ، بل سعى الى جعله (ردماً) وهو أضخم وأفخم من السدّ ، بأن قال لهم: (فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً) ، فالردم — كما يذكر اللغويون — أكبر من السدّ ، قال الزمخشري (٣) : «ردماً حاجزاً حصيناً موثقاً ،والردم أكبر من السد» . وقال ابن‌منظور (٤) : «قيل : الردم أكثر (٥) من السد ؛ لأن الردم ماجعل بعضه على بعض» .

---

(١) في ظلال القرآن ١٢/١٦ .
(٢) الكهف : ٩٣ .
(٣) الكشاف ٢٧١/٢ .
(٤) لسان العرب ٢٧/٢ (ردم) .
(٥) كذا في الأصل ، والمعنى يقتضي أن تكون : (أكبر) ، كما في نص الزمخشري مثلا .

وقد ذكروا أن أساس الردم ، كان من الصخر والنحاس المذاب ، والبناء من الحديد والنحاس المذاب . والذي ذكره القرآن ، أن ذا القرنين جعل ذلك المانع الذي بين الجبلين ركاماً من قطع الحديد ،حتى سدّ به مابين الجبلين من فسحة ، الى أعلاها ؛ ليساوي الركام الحديدي بقمتي الجبلين . ثم أمر العمال المختصين بالنفخ في الحطب والفحم الذي أحاط الحديد به . حتى إذا حمي وصار جمراً ، صبّ عليه النحاس المذاب ، فاختلط به والتصق بعضه ببعض ، فغدا كتلة صلبة قوية : (حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أُفرغ عليه قطراً) .

وهذا الذي عمله ذو القرنين ، بهدي كان من الله سبحانه ، وهو سبق للعلم البشري الحديث بقرون لايعلم عددها إلا الله (١) .

وبذلك التحم الحاجزان : الطبيعي وهو الجبل ، والصناعي وهو الردم ليكونا حاجزاً حصيناً منع أولئك الهمج من الوصول الى القوم الضعفاء المتخلفين وذلك أنهم حاولوا ارتقاءه فلم يقدروا لعلوه ، وحاولوا ثقبه فعجزوا ؛ لسمكه وصلابته ، وبذلك عاش أصحاب السدّ في سلام وأمن ، وتركهم ذو القرنين الفاتح لأمم الكفر ، والمنافح عن الشعوب المستضعفة ، حامداً ربه على ماوفقه اليه من الخير ، مبيناً لهم أن ذلك من فضل ربه ، لأنه هو الموفق له على صنعه ، وأنه سيكون يوم القيامة هباء منثوراً ، مع مايصيب عناصر الطبيعة وغيرها من دمار : (قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاً وكان وعد ربي حقاً (٢) .

---

(١) في ظلال القرآن ١٤/١٦ .
(٢) الكهف : ٩٨ .

— المصادر والمراجع —

١ — القرآن الكريم .

٢ — المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ترتيب محمد فؤاد عبدالباقي مطابع الشعب — القاهرة — بدون تاريخ .

٣ — الانصاري : أبو زيد ، النوادر في اللغة ، تعليق سعيد الشرتوني ، دار الكتاب العربي — بيروت ، بلا تاريخ .

٤ — الراغب : أبو القاسم الحسين بن محمد : مفردات الفاظ القرآن ، تحقيق نديم مرعشلي ، بيروت ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .

٥ — الرضيّ : الشريف محمد بن الحسين : المجازات النبوية ، تحقيق الدكتور طه الزيني ، مؤسسة الحلبي — القاهرة ١٣٧٨هـ / ١٩٦٧م.

٦ — الزركشي : بدر الدين محمد بن عبدالله : البرهان في علوم القرآن ، بتحقيق أبي الفضل ابراهيم ، ط١ ، دار احياء الكتب العربية — القاهرة ١٩٥٧ .

٧ — الزمخشري : جارالله محمود بن عمر ، الكشاف عن حقائق التنزيل ، مطبعة البابي الحلبي — القاهرة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م .

٨ — ابن الزملكاني : التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن، تحقيق د.أحمد مطلوب و د. خديجة الحديثي ، مطبعة العاني ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م .

٩ — سيّد قطب : في ظلال القرآن ، ط٣ ، دار احياء التراث العربي — بيروت بلا تاريخ .

١٠ — السيوطي : جلال الدين ، الاتقان في علوم القرآن ، ط٣ ، مطبعة البابي ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م

١١ — الصاوي المالكي : حاشية على تفسير الجلالين ، راجعها عبدالعزيز سيد الأهل — مصر ١٣٨١هـ

١٢ — الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير : جامع البيان في تأويل آي القرآن ، وبتحقيق محمود محمد شاكر وأخيه ، دار المعارف — مصر .

١٣ — الطوسي : أبو جعفر محمد بن الحسن : التبيان في تفسير القرآن ، المطبعة العلمية — النجف الأشرف ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م .

١٤ — أبو عبيدة : معمر بن المثنى : مجاز القرآن : بتحقيق محمد فؤاد سزكين : ط٢ ، دار الفكر — القاهرة ١٩٧٠م .

١٥ — المسعودي : علي بن الحسين : التنبيه والإشراف ، دار التراث — بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

١٦ — ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم : لسان العرب ، صورة عن طبعة بولاق : بدون تأريخ .

١٧ — هارون بن موسى : الوجوه والنظائر في القرآن ، بتحقيق الدكتور حاتم الضامن ، وزارة الثقافة والاعلام — بغداد ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م .

١٨ — ابن هشام الأنصاري : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، بتحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد — القاهرة ، بلا تاريخ .

١٩ — ابن هشام الحميري : سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، تحقيق محيي الدين ، مطبعة المدني — القاهرة ١٩٧١م .

٢٠ — الواحدي : أبو الحسن علي بن أحمد ، أسباب النزول ، ط٢ ، مطبعة البابي — مصر ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م .